زيارة علم من أعلام المسلمين المعاصرين

د. مأمون مبيض

يُنقل عن المفكر مالك بن نابي ، المشهور بـــ "ابن نبي" كما صححه لي الأستاذ زهير الشاويش مؤسس المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، عندما زرته منذ أيام في بيته في الحازمية – بيروت ، يُنقل عن مالك رحمه الله أنه كان يوصي الشباب بزيارة المقابر ، وكان يقصد بالمقابر المكتبات التي تحتوي على الكثير من الكنوز المدفونة فيها ، وربما قصد بشكل خاص ما في المكتبات من كنوز المخطوطات القديمة الدفينة.

ولنا أن نقارن بين هذه الوصية الرائعة لمالك وبين ضعف اهتمام العالم العربي والإسلامي بالمخطوطات عموماً ، ومما يشير لضعف الاهتمام هذا عدة مظاهر أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً ، ذلك الزميل الطبيب الذي جمعني به مجلس بعض الأصدقاء مرة ، وعندما ذكرت شيئاً عن المخطوطات ، سألني الزميل " وما هي المخطوطات ؟! " فتألمت لكون طبيب متعلم عربي مسلم لا يعلم ما هي المخطوطات.

والمظهر الثاني أني كنت أسير مرّة في أحد أحياء مدينتي دمشق ، فمررت ببعض القمامة الملقاة في الطريق ، ولا أدري كيف ، إلا أن نظري وقع على كتاب ينتصب وسط القمامة. رفعت الكتاب بأصبعين فإذا به مخطوطة بخطّ يدويّ جميل لكتاب " كليلة ودمنة ". وقد كان عمر المخطوطة هذه أكثر من مئة عام.

هذه المخطوطة التي التقطتها من وسط القمامة في دمشق معروضة الآن في معرض خاص في متحف " ألستر " في مدينة بلفاست في أيرلندا الشمالية حيث أعيش. وأذكر أن مما قلته في كلمتي التي ألقيتها في حفل افتتاح هذا المعرض ، أنني أتيت للغرب من بلد عريق بالحضارة وإلى حدّ أن قمامة هذا البلد ، بلاد الشام ، تحتوي على كنوز من المخطوطات. وتحديت مازحاً حضور الحفل بأنهم لو نقـّبوا في كل قمامات أيرلندا الشمالية فلن يعثروا على مخطوطة واحدة ، وهذا إن دلّ على غنى بلادنا العربية والإسلامية بالحضارة والتراث ، إلا أنه يدلّ أيضا على جهل كبير في هذه البلاد التي تلقى فيها مخطوطاتها في قمامة الطريق !

والمظهر الثالث هو الكميات الكبيرة من المخطوطات المنتشرة في مكتبات ، أو مقابر العالم والعواصم الغربية على قول أستاذنا مالك بن نابي ، والكثير من هذه المخطوطات لم يحقق بعد و لم يدرس أو يُنشر بله أن يستفاد منه. يبدو وكأننا ننتظر الغربيين الذين اقتنوا هذه المخطوطات وحفظوها الحفظ المناسب... أن يقوموا أيضا بتحقيقها ونشرها لنا !

أذكر أننا نظـّمنا مرة لبعض ضيوفنا في مدينة دبلن عاصمة جمهورية أيرلندا زيارة خاصة لمكتبة عريقة هناك تحتوي المئات من المخطوطات العربية والإسلامية ، واسمها مكتبة "تشستر بيتي". حيث قام "تشستر بيتي" خلال سنوات طويلة من حياته وبسبب اهتمامه الخاص ، قام بشراء وجمع المخطوطات والتحف الشرقية ، وقد أقام مكتبة خاصة به في لندن ، إلا أنه أوصى أن تـُهدى هذه المكتبة بعد وفاته إلى الشعب الإيرلندي.

وأثناء زيارتنا للمكتبة قامت السيدة المشرفة التي استقبلتنا بعرض بعض المخطوطات القديمة التي لديهم ، وكانت هذه السيدة ترتدي قفازات قماشية بيضاء ، وهي تحمل كل مخطوطة بكل رفق ، وتقلب الصفحات بكل رعاية وتأنـّي. وقد طلبت منا السيدة عدم لمس أو تقليب الصفحات كي لا نعرضها للتلف ، إلا أن بعض ضيوفنا من المسلمين لم يراعوا هذا الطلب ، وبدأ بعضهم يقلب الصفحات بيده وكأنه يعاين بعض حبات البندورة والخيار ليشتريها!

وأذكر أني طلبت من السيدة أن ترينا نسخة المصحف الشريف من القرن الثاني الهجريّ التي لديهم ، والتي رأيتها في زيارة سابقة للمكتبة ، إلا أن السيدة اعتذرت قائلة بأنهم قد أرسلوا تلك المخطوطة للعيادة الطبيّة للفحص والترميم. وأذكر أني شكرت السيدة والقائمين على المكتبة على الجهد الذي يبذلونه في رعاية هذه المخطوطات العربية والإسلامية ، والتي لو كانت عندنا لكان مصير بعضها القمامة أو لفّ سندويشات الطعام [1] .

والمظهر الرابع لضعف الاهتمام بالمخطوطات في بلادنا هو أن أحد أصدقائي والذي يعمل على رسالة الدكتوراه من جامعة أوكسفورد في تحقيق مخطوطة في الرياضيات من تأليف الإمام أبو حامد الغزالي ، وقد بحث هذا الصديق عن نسخة أصلية لهذه المخطوطة ليدقق تحقيقه فعرف أن نسخة منها موجودة في مكتبة الأسد في دمشق. وقد حاول هذا الصديق الحصول على نسخة الميكروفلم للمخطوطة لعدة سنوات ولكن من دون نتيجة مع الأسف. وحتى عندما عرض على مكتبة الأسد أن

(1) انظر القصة التي نشرتها زوجتي وفاء الدالاتي بعنوان "الصفحة" ، وهي مـــن مطبوعـــات المكتـــب الإسلامي- بيروت ٢٠٠٥

يتبادل معها بنسخة من المخطوطة المطلوبة مقابل نسختين من مخطوطتين غير متوفرتين لدى مكتبة الأسد ، ولكن أيضاً دون نتيجة. أقول هذا بينما أي مكتبة من المكتبات الغربية تتيح ولأي باحث وبثمن بخس نسخة ميكروفيلم لأي مخطوطة يريدها وتتوفر لديهم.

أعود لزيارتي للأستاذ زهير الشاويش حيث أن مما يمتاز به أن لديه اهتمام خاص بهذا الموضوع الحيوي ، المخطوطات ، وقد أخبرني الأستاذ بأنه يقتني أكثر من عشرة آلاف مخطوطة ، ومنها مخطوطات بخط ابن تيمية وابن القيّم... ومزحت مع الأستاذ أن مجرّد النظر لخطّ مثل هؤلاء العلماء قد يكون عبادة ، إلا أن الأستاذ على عادته في التقيّد بالنصّ أشار وبلطف إلى أن هذا النظر ومهما كان فضله ، فهو لا يصل لمكانة العبادة.

والمخطوطة الواحدة كما ذكر الأستاذ ، قد تكون من عشرات المجلدات ، وقد تكون أحياناً من صفحة واحدة. وقد جمع الأستاذ زهير هذه المخطوطات الكثيرة بجهده الخاص خلال عشرات السنين. وقد أخبرني عن أول مخطوطة اقتناها عام ١٩٤٩- ١٩٥٠، عندما كان في مكتبة في المسكيّة بجانب الجامع الأموي في دمشق ، حيث أتى رجل يبيع كتاباً قديماً ، إلا أن صاحب المكتبة لم يرغب بشرائه منه لقدمه ، فعرض الأستاذ زهير تبادل الكتاب القديم بكتاب "جديد" بإعطائه نسخة جديدة من كتاب "رياض الصالحين" وأخذ منه الكتاب القديم. وعندما عاد الأستاذ لبيته ونظر في الكتاب القديم فإذا به مخطوطة قديمة بعنوان "أيها الولد" لحجة الإسلام أبو حامد بن محمد الغزالي.

ولا أنسى منظراً لفت الأستاذ زهير نظري إليه في بيته ، حيث كمية كبيرة من المخطوطات احتفظ بها الأستاذ ، وبسبب العدوان والقصف الإسرائيلي على بيروت

قبيل زيارتي في صيف ٢٠٠٦ ، فقد وضع الأستاذ هذه المخطوطات في زاوية من المنـــزل ، وغطاها ببعض اللبنات الإسمنتية للحفاظ عليها ومنع الأذى عنها في حال وقوع قذيفة على المنـــزل، لا سمح الله.

ويعكف الأستاذ حالياً على تبويب وتصنيف ما لديه من مخطوطات بحسب المؤلف والتاريخ والموضوع ونوعية المخطوطة...

وأثناء زيارتي للأستاذ زهير ذكرت له بأن زوجتي وفاء تبحث عن مراجع تتحدث عن "سنان" المهندس المعماري العثماني ، والذي اشتهر بتخطيط وعمارة الكثير من المساجد الكبيرة في تركيا وبلاد الشام. وذكر لي الأستاذ زهير بأنه هو أيضاً يبحث عن "سنان" آخر ، لأن لديه مخطوطتان صغيرتان بنفس العنوان إلا أنهما بمضمونين مختلفين ، وكلاهما من تأليف "سنان" غير "سنان" المعماري.

ويلاحظ الزائر للأستاذ زهير أنه دائماً في انشغال في العلم والمراجعة والتحقيق والتوثيق ، وتجلى ذلك من خلال سؤالي له عن "سنان" ، ففور طرحي السؤال عليه ، ما كان منه إلا أن طلب من شاب يقوم على مساعدته وخدمته أن يحضر مرجعاً بعنوان "الشقائق النعمانية في رجال الدولة العثمانية" ، وأخذت أقرأ على الأستاذ ما ورد في المرجع حول العديد من الشخصيات باسم "سنان".

يا لها من لحظات قليلة وأنا أقرأ على الأستاذ ، إلا أني تعلمت فيها الكثير. قلت في نفسي هنيئاً لهذا الشاب في صحبته لأستاذنا والقيام على مساعدته وخدمته ، فكم سيتعلم منه الكثير والكثير في أمور المخطوطات وغيرها. وتمنيت لو أستطيع أن أرتـــّب لنفسي أو لأبنائي أن نقوم على خدمة أستاذنا لبعض الوقت ، لنكتسب من ذلك علوماً لا توفرها المعاهد ولا الجامعات.

وأنا أقرأ مع الأستاذ حان وقت صلاة الجمعة ، فمزحت معه بأن الجلوس بين يديه والتعلم منه ربما أولى من الذهاب لسماع خطبة الجمعة في المسجد ، وهذا ما فعلنا وحجّتي في هذا أنني كنت مسافراً فلم تجب عليّ الجمعة ، ويتعذر على الأستاذ مؤخراً الذهاب للمسجد بسبب تقدم السنّ ، حفظه الله.

ومما رأيته من زيارتي للأستاذ زهير أنه يتبع عادة جميلة مبتكرة و لم أعرفها من قبل إلا في الأماكن الرسمية كالمتاحف وغيرها ، حيث يحتفظ الأستاذ إلى جانبه بدفتر اسمه "السجل الذهبي" ، يقوم بتسليمه لبعض زواره ليسجلوا فيه كلمات تعبّر عن مشاعرهم ، وما يحبون تدوينه من انطباع زيارتهم للأستاذ. إن مجرد تصفح ما دوّنه بعض زوار الأستاذ ليعطي انطباعاً مفيداً عن الزائر والمُزار ، وخاصة أن ممن دوّن كلماته في الكتاب الكثير من العلماء والمفكرين وأعلام العالم الإسلامي ، ممن زار الأستاذ في وقت من الأوقات. ولا أدري لماذا ، سوى ربما تشجيع الأستاذ للمتعلمين ، أنه أكرمني فعرض عليّ كتابة كلمات في "السجل الذهبي".

ولا أنسى أن أذكر أيضاً إكرام الأستاذ لي من قبل سنوات عندما أجازني "إجازة شرعية عامة" أعتز بها يوم التقيت وللمرة الأولى بالأستاذ زهير وعلى مدار عدة أيام قضيناها معاً في رحاب مكة المكرمة في ضيافة صهر الأستاذ الصديق د. فواز قطب.

حفظ الله تعالى أستاذنا الفاضل الشيخ زهير الشاويش ، وأمده ربي بالصحة والعافية ، ليتابع مشروعه ، بل مشاريعه ، ومنها رعاية هذه المخطوطات ، وأدعوه تعالى أن يوقظ الأمة من غفلتها عن هذه الكنوز القديمة ، لنكون أوفياء لمؤلفيها وكاتبيها ، ولنخرج ما فيها من معارف تفيدنا وتفيد الإنسانية جمعاء.